في الأدب الإنساني

(حول إشكالية الأدب الإسلامي)

الأدبُ الإنسانيّ شيءٌ ليست له علاقةٌ بالمذاهبِ الإنسانيّة التي راجت في أوروبّا في القرنين الأخيرين، هو شيء أحاول عن طريق التفصيل في معناه أن أعالج إشكالية الأدب الإسلاميّ". قرأت مصطلح "الأدب الإسلاميّ" لأوّل مرة في مقال "اصطلاح للأستاذ سيد قطب الناقد والأديب، أظنّه مقالٌ كتب في أوائل الخمسينيّات من القرن المنصرم وقد تحدّث فيه الرجل عن الأدب الإسلامي ومعناه، وقد تكرر هذا الكلام وغيره كثيرًا في كتابات الإسلاميّين من أمثال: الكيلاني ومحمد قطب وعماد الدين خليل وغيرهم. كنت –ولا أخفي- شديد الحماسة للمصطلح والفكرة بشكل أساسيّ، ورغم أنّي لم أوغل كثيرًا بما كتبه النقاد الإسلاميون في هذا الصدد إلا أنّ الفكرة ومضمونها العام قد تبلورا في ذهني، فاندفعتُ أقرأ ما كتبه الأدباء الذين وسموا "بالإسلاميّة" ومنهم: الشاعر يوسف العظم والشاعر عمر الأميري وقبلهم إقبال وغيرهم. واحد من هؤلاء وجدته قريبًا من نفسي، ووجدتني قد تفاعلتُ كثيرًا مع تجربته الشعريّة وهو الشاعر السوري عمر الأميري، وكنت قد قرأتُ ديوانه الرائع "مع الله" فكان عاملاً مشجّعًا على المضيّ في الطريق، ووجدتُني أكتب الشعر بعد تلك الفترة، وكان –كأيّ بداية شعريّة- شعرًا يحمل من المباشرة ما يحمل ومن الخطابية ما يحمل، ولكن بعض النصوص كنت !قد اعتنيتُ بها ووضعتها معتزًّا في خانة الأدب الإسلاميّ

كانت تلك النصوص الشعرية تتحدّث عن النصر وهموم الأمة الإسلامية وصراع الحق مع الباطل، تلك هي المحاور الأساسيّة الي تدور حولها، ولم أكن في فترة كتابتها أخوض تجربةً عميقة في الدعوة الإسلاميّة، ولم تكن ذاتي الفتيّة قد ذاقت بأس الطغاة ولا سياط الجلادين! كان الشعر إذ ذاكَ إيمانٌ عميق بالفكرة والاتجاه والدعوة، ولم يكن .تجربة حقيقيّة خضتها بنفسي

مقتنعًا أن الأدب الإسلاميّ شيء كبير كبير.. وشيء هامٌّ وضروريّ -كنتُ –ولا زلتُ للدعوة وشيء قيّم بالقياس لما يتهافت علينا من آدابٍ موشاةٍ بسَمْتِ الحداثة وقيم الغرب! هزيلة.. لا تصل ..هو عملاق شامخ القامة تقف أمامه الآداب الإنسانيّة الأخرى قزمةً !إلى مرتقاه

ولكنّني كنتُ –ولا زلتُ- أنظر إلى الساحة الأدبية العربية فلا أجد له متنفّسًا، ولا أجد له نموذجًا حيّا قائمًا يمكن القول أنّه يستطيع مطاولة النماذج التي تتربّع على عرش الأدب العربيّ في عصرنا الحاضر. قد يفوق أدنى نموذج أدبيّ إسلاميّ الآدابَ العربية الأخرى كلّها من حيث "القيم" التي يحملها والرسالة التي تكفل بإيصالها، ولكنّني أتحدّث عن الناحية الفنّية والإعلاميّة، فلا نكاد نسمع في عصرنا الحاضر عن أديب إسلاميّ يحمل في أدبه رسالة دعويّة وقيمًا عليا وفي ذات الوقتِ تطاول شهرته قممًا أدبيّة من مثل: بدر شاكر السيّاب، نزار قباني، محمود درويش، جبران خليل جبران، أدونيس، أحلام مستغانمي، أحمد مطر، غادة السمان، نجيب محفوظ، زكريا تامر... وغيرهم وغيرهم.. لا تجد إسلاميّا وصل في السابق أو اليوم إلى هذه القمم من حيث الشهرة والرواج عند أمة العرب والأمم الأخرى. فما السرّ في ذلك؟ هل الأدباء الإسلاميّون أقلّ قدرةً من بقية الخلق؟ أم إن الإسلام بقيمه وتصوره وأفكاره وأخلاقه إذا ما تغلغل في نفس الأديب صرفه عن الفنّ الموحي الجميل الذي يلفت الأنظار ويلهب الأفئدة؟

أعتقد أنّ المشكلة تكمن في المصطلح وفي النقد الإسلامي وفي طريقة طرح الموضوع، إنّ انضواء الأدباء تحت لواء مصطلح "الأدب الإسلامي" أو "الإسلاميّة في الأدب" أثر في ذاتيّة الأدب من حيث هو تعبيرٌ موحٍ جميل عن تجربة شعوريّة. حينما نقول: الأدب الإسلامي فإنّنا نتحدّث عن أدب موجّهٍ بالفكر، فقد كتب الكثير من الأدباء الإسلاميون آدابهم بعد تبلور المصطلح وبعد خوضهم في الكلام عنه ومحاولة نشره ممّا أدى بطريقة أو بأخرى إلى التركيز على قضايا الدين والدعوة في آدابهم وحتى لو كان الأديب متفاعلاً مع قضايا الدعوة التي يكتبها ولكنّ الأدب الجميل الموحي لا يحتاج إلى مجرّد التفاعل، إنّه يحتاج إلى "العيش بعمق" في تجربة شعوريّة مع أيّ حدث أو فكرة أو حلم أو أي شيء.. حينها يسكب الأديب مشاعره دون محاولة نظم الأفكار في القالب فإن كانت "الذات" التي تكتب وتتفاعل مع هذا الحدث هي !الأدبي، وهنا يكون المحك "ذات مسلمة" عاشت الإسلام فكرًا وشعورًا وواقعًا سلوكيًّا سنجد أن الأدب الناتج هو أدب مسلم لا محالة.. لن نرى ألفاظ الدعوة المباشرة في النص نعم، ولن نرى خطابًا مباشرًا لوضع ما أو وصفًا وعظيًّا لحدث ما.. لن نجد كلّ ذلك ولكن الأدب الناتج حينئذٍ سيكون أدبًا أقرب إلى مفهوم "الأدب الجميل الموحي" من غالبيّة الآداب الإسلاميّة التي !عهدناها

وقد أطلقنا على هذا الأدب تسمية "الأدب الإنساني" لإبعاد "توجيهيّة المصطلح". وقد !يقول قائل إن وصفه بالإنساني يعني أنّه يهتم بقضايا الإنسانية فهو موجّه بهذا الوصف ولكن ذلك ليس المقصود في التسمية. الأدب الإنساني معناه الأدب الذي يليق بالإنسان من حيث هو أدبٌ يتعامل مع الإنسان بوضعه السويّ، ووضع الإنسان السويّ أن يكون عابدًا مسلمًا خاضعًا لله تعالى بكل كيانه (فكرًا وشعورًا وسلوكًا) وإذا كنّا في دعوتنا

ندعو البشرية جمعاء إلى الإسلام واثقين أنّ الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يحفظ إنسانيّة الإنسان والذي يحقّق له كرامته وسعادته في الدنيا والآخرة وأنّ الإنسان حين يتنكّب عن طريق الله فهو بذلك يخلع إنسانيّته ويلبس بدلا منها ثوب "الحيوان".. حينما تكون شهواته هي الدافع الأول في حياته على الأرض ويكون "التفكير" عاملا مساعدًا في تقديم الوسائل التي يشبع فيها شهواته ونزواته.. حين يكون الإنسان على هذه الشاكلة فإنّه يكون عبدًا لشهواته وليس عبدًا لله تعالى، ويكون هدف الدعوة هو "تحرير الإنسان" من عبوديّته لأي شيء سوى الله عزّ وجلّ. ونعود للأدب.. فهو لن يكون خطابًا مباشرًا كالوعظ والبحوث العلمية، بل سيكون عبارة عن صورة الإنسان في كيانه السوي!

حينما يعرض الأديب المسلم تجربته الشعوريّة مع حدث ما أو واقع ما أو فكرة ما بصورة موحيةٍ فإنّه بذلك يعرض لنا "صورة ذاتية إسلامية"، هذه الصورة تعرض "الإنسان" وهو ينظر إلى الواقع النظرة الإسلامية ويتفاعل مع الأحداث بشعوره الإسلاميّ وقيمه الإسلامية ويتعامل مع الأفكار والأوضاع التي يصادفها في الحياة تعاملا إسلاميّا.. هذه النظرة وهذا التفاعل وهذا التعامل ينبغي أن تكون جميعها فطريّة أصيلة تنبض بشكل طبيعيّ، لا أن يحاول الأديب المسلم اصطناع التفاعل أو "مسرحة" التجربة! لأنه بذلك يُفقد الأدب شحنته الشعورية التي تضفي عليه روعة وجمالاً.. قد يكون جميلا بعض الشيء نعم، ولكنّه بمباشرته وتوجيهيّته وخطابيّته ووعظيّته سيفقد رصيدًا ضخمًا كان كفيلا أن يضعه في قمّة الآداب العربية والعالميّة! باختصار شديد.. ما على الأديب إلا أن يسكب لنا ذاته المسلمة بكل عفويّة وكل تلقائيّة دون تخطيط وتفكير كبير.. بشرط أن يكون قد مارس تجربة شعوريّة وأن يعرض لنا هذه التجربة في صورة موحية لا في كلام مباشر.. حينها سنتكفّل نحن "القراء" أو "النقاد" بمحاولة تجميع الملامح الإسلامية (إن وجدت) دون أن يكون الأديب قد تعمّد تضمينها في النصّ، وإن أصر على ذلك فأمامه البحث العلمي والمقالة كي يرتب لنا أفكاره بشكل أكثر وضوحًا وأكثر حريّة ونظامًا! أما "الأدب" فليبقَ فضاءً لتحليق الأرواح.. وملعبًا لبصمات القلوب وشحنات الشعور!

...والحديث يطول

14.4.2010
شريف محمد جابر